الفصل الثالث عشر
انتشار الطباعة في أوروبا وأشهر الكتب المطبوعة

انتشر فن الطباعة بسرعة البرق في كل أرجاء أوروبا، ولكن بنسب متفاوتة وبسرعة متفاوتة من مكان إلى آخر. وتعد المانيا أول البلاد التي انتشر فيها هذا الفن، تتلوها ايطاليا ففرنسا والأراضي الواطئة وانكلترا.

وقد انتشر فن الطباعة في القسم الجنوبي من المانيا أول ما انتشر. ويرجع السبب في ذلك إلى أن معظم المدن التي انتشر فيها فن الطباعة في وقت مبكر في ألمانيا الجنوبية كانت مجاورة لمينز مهد الطباعة الأول، كما كانت هذه ا لمدن مراكز مهمة تمر بها الطريق التجارية الرئيسية التي تصل ألمانيا وأوروبا بموانئ البحر الأبيض المتوسط.

ولقد أسس فوست وصهره شوفور مطبعة جديدة بمجرد أن استولى على آلات ومطابع غوتنبرغ وذلك في مدينة مينز. وقد استطاعا منذ عام ١٤٥٧م طبع كتاب «**المزامير**» الذي سنتحدث عنه فيما بعد. ثم أصدرا بعد ذلك سلسلة طويلة من الكتب، من بينها توراة فاخرة ذات ثمانية وأربعين سطراً تم طبعها سنة ١٤٦٢م، وكلها تشهد بمواهب شوفور الخارقة، حتى أنه عُدَّ الروح المحركة للمشروعات الطباعية التي مولها فوست. وقد استمر شوفور في إدارة المطبعة بعد وفاة فوست حتى وفاته هو سنة ١٥٠٢م.

وتعد مدينتا بامبرغ وستراسبورغ المدينتين الأوليين اللتين انتشر فيهما فن الطباعة بعد منيز مباشرة. فقد أسس البرت فيستر في بامبرغ مطبعة سنة ١٤٦١م وطبع ما لا يقل عن عشرة كتب.

كذلك أسس جوهان مانتيلين Johan Mentelin في ستراسبورغ مطبعة سنة ١٤٦٠م وطبع عدداً من الكتب، وخلفه في إدارة المطبعة صهره أدولف راش الذي اشتهر أنه أول طابع استخدم حروفاً رومانية في الطباعة، وتميزت حروفه باستعمال حرف ال R بشكله الكبير حتى أنه أطلق عليه اسم الطابع آر R- Printer . ولقد انتشر بعد ذلك فن الطباعة في

كل ألمانيا حتى إنه بلغ عدد المدن الألمانية التي أسس فيها مطابع أكثر من عشرين مدينة خلال نصف القرن الذي تلا اختراع الطباعة.

ولقد استخدم أوائل الطابعين أدوات بدائية، فكانت المكابس الكبيرة المصنوعة من خشب البلوط تبدو بضخامتها في قاعة المطبعة مثبتة بالسقف والأرض. أما المكبس نفسه فكان يضغط على الورقة بعد وضعها على الحروف المجمعة، ولكي يتم الضغط كان لابد من بذل مجهود بدني كاف حتى يتم الحصول على الضغط المطلوب، وكان يتم ذلك بالقوة اليدوية.

وكان المكبس أصغر حجماً بكثير من اطار الحروف المجمعة، ولم يكن من اليسير طبع ورقة كاملة دفعة واحدة مما اضطر الطابعين إلى تقسيم الأوراق إلى عدة أجزاء يطبع كل جزء على حدة ثم تجمع فيما بعد.

أما صف وجمع الحروف فكان يتم بوساطة مخدتين من الجلد مزودتين بمقابض. وتحبر الحروف المجمعة، وكان لابد من مران طويل لاكتساب الخبرة اللازمة لضبط التحبير وجعل الحبر ينتشر على جميع أجزاء الصفحة بدرجة واحدة ولتجنب المساس بحروف العمود المجمع، مما كان يؤدي إلى اختلال السطور.

وكانت عملية صهر الحروف أدق عملية بالنسبة لأولئك الطابعين الأولين. أما الجانب الأساسي في الآلة المستخدمة في صهر الحروف المصنوعة من الرصاص، والتي كانت تسمى القالب، فكان من النحاس الأصفر أو الأحمر، وهي مادة كانت تتلف إذا أكثر استعمالها؛ بحيث أن الحروف لم تكن تحتفظ دائماً بأبعادها وحوافها الدقيقة، مما كان يؤثر على انتظام حروفها عند الطبع.

أقدم الكتب المطبوعة

وعلى الرغم من هذه العيوب الفنية، نجد أقدم الكتب المطبوعة على جانب كبير من الجمال الفني، وذلك بسبب اتباعها التقليد القديم الذي كان معروفاً في مخطوطات العصور الوسطى التي اتخذها أوائل الطابعين نماذج احتذوا حذوها وحاولوا تقليدها حرفياً، حتى أنهم اتخذوا شكل الصحيفة العام من جميع نواحيها، بل ومقلدين لها في جميع النقاط التي كان الفن الطباعي عاجزاً عن تنفيذها، وخاصة عند تصميم شكل الحروف الأولى الكبيرة وما إليها من زخارف، حتى أنهم اضطروا إلى الرجوع إلى الطرق

القديمة. كما لجؤوا إلى الألوان اليدوية حتى انتهى بهم الأمر إلى أن اتخذ الكتاب المطبوع الأول بشكل واضح المظهر الخارجي الذي كان لمخطوطات العصر الوسيط المكتوبة على الرق، وخلق روائع لا تقل إتقاناً عن المخطوطات المزخرفة على الرق.

توراة غوتنبرغ ١٤٥٥م:

للتأكد من صحة ما ذكرناه، ما علينا إلا أن نلقي نظرة على توراة غوتنبرغ المطبوعة في مجلدين في حجم النصف عام ١٤٥٥، ذلك أنه لو لم يفحص هذا الكتاب عن قرب لخاله المرء مخطوطاً. ويعرف هذا الكتاب أيضاً باسم التوراة ذات الاثنين والأربعين سطراً، ذلك لأن الصفحة الواحدة مقسومة إلى عمودين متوازيين في كل واحد منهما اثنان وأربعون سطراً. كذلك تسمى هذه التوراة باسم توراة مازاران نسبة إلى الوزير الفرنسي الشهير الذي وجدت نسخة منها في مكتبته الخاصة في القرن السابع عشر.

تتألف هذه التوراة من ألف ومائتي صفحة، وحروفها نسخة طبق الأصل عن الكتابة القوطية في أواخر مراحلها. وكان الطابع يترك مكاناً خالياً مناسباً، ليرسم باليد، فيما بعد وبعد انتهاء الطباعة، رؤوس الفقرات والحروف الأولى وعناوين الفصول والرسوم الهامشية.

ولم يزل باقياً من هذه التوراة إحدى وأربعون نسخة، منها اثنتا عشرة نسخة مطبوعة على الرق. ويبدو أن عدد النسخ الأصلي لم يزد على مائة، ولابد أن نذكر أنه دفعت أثمان خيالية ثمن بعض النسخ من هذه التوراة.

فقد اشترى أحد الأمريكيين نسخة من هذه التوراة بمبلغ قدره مائة وخمسة آلاف دولار وقدمها هدية إلى مكتبة جامعة ييل Yale الأمريكية، وكان ذلك سنة ١٩٢٧م.

وهناك توراة أخرى ذات ستة وثلاثين سطراً تعزى أيضاً إلى غوتنبرغ وتسمى توراة شلهورن Schellhorn.

كتاب مزامير منيز سنة ١٤٥٧م.

ويعد كتاب المزامير أجمل من توراة غوتنبرغ، ذلك أن هذا الكتاب طبعه فوست وشوفور سنة ١٤٥٧م. ويمثل هذا الكتاب، بطباعته على الرق، الأوج الذي بلغته الطباعة الأولى، كما وأنه يعد في الوقت نفسه، أول الكتب المطبوعة التي تشير إلى زمن الطباعة والطابع، فقد أثبت الطابعان في نهاية النص اسمها (فوست وشوفور) واسم البلد (منيز)

وتاريخ الطبع (سنة ١٤٥٧م). وقد طبع الكتاب كلياً على الآلات الطابعة بما في ذلك الحروف الأولى الجميلة للغاية والمطبوعة باللون الأحمر أو الأحمر والأزرق.

ويحمل كتاب المزامير هذا أول علامات الطابعين وهي عبارة عن ترس معلق في غصن من الأغصان. ولم يلبث هذا التقليد أن عم، واتخذ كل طابع له علامة وسمة كان يثبتها على الكتب التي يقوم بطبعها، ولا يزال هناك حوالي عشرين نسخة من هذه المزامير، وأجملها تلك النسخة المحفوظة في المكتبة الأهلية في فينا.

ونحن نرى مما تقدم أن أوائل الكتب المطبوعة كانت تقليداً أميناً للمخطوطات، كما امتازت بانعدام العنوان فيها، ونقصد بالعنوان المعنى المفهوم والحقيقي للكلمة والمتعارف عليه الآن. وكان النص يبدأ بكلمات تمهيدية مثل نبدأ أو من هنا نبدأ. وهكذا. ولم يبدأ القوم بطبع العنوان في أول الكتاب إلا منذ حوالي ١٥٠٠م.

الطباعة في إيطاليا :

انتشر فن الطباعة بسرعة في ارجاء اوروبا، وأصبح للطابعين الألمان، وبخاصة أولئك الذين عاشوا في منيز أو قربها، شهرة عريضة، جعلت كثيراً من الطابعين الألمان، يدعون، بحق أو بغير حق، أنهم من منيز وتعلموا المهنة فيها.

ولقد كانت ايطاليا من أوائل البلدان الأوروبية التي انتشر فن الطباعة فيها. ولا غرو في ذلك فقد كانت إيطاليا آنذاك مركزاً ثقافياً وتجارياً مهماً، كما كانت مركز البابوية، ولروما بشكل خاص مكانة ممتازة لدى العالم النصراني كله. وقد اشتهرت مدن ايطالية أخرى كالبندقية وجنوى بغناها وثرائها وتقاليدها الفنية، ولذلك اجتذبت الطابعين من كل حدب وصوب.

وتعد المطبعة التي أسسها الطابعان الألمانيان زفاينهايم وبانارتر في أحد أديرة مدينة سوبياكو من ضواحي روما سنة ١٤٦٤م أول مطبعة أسست في إيطاليا، وهناك أنتجا ثلاثة كتب.

وفي سنة ١٤٦٧م انتقلا إلى روما وأسسا مطبعة هناك وبدءا في انتاج سلسلة طويلة من الكتب. وأغلبها يحوي نصوصاً دينية لاتينية قديمة، وكانا يطبعان من كل كتاب حوالي ٣٠٠ نسخة. وأخيراً افترق الشريكان سنة ١٤٧٤م واستمر بانارتر في عمله بالطباعة في روما حتى وفاته سنة ١٤٧٦م، على حين التفت زفاينهايم إلى انتاج الخرائط بالحفر على

المعدن وظل يعمل حتى وفاته سنة ١٤٧٧م.

ووجد حوالي ذلك الزمن في روما عشرة طابعين كلهم ألمان.

ولقد اجتذبت البندقية طابعين ألمان بنسبة حتى أكبر مما اجتذبتهم روما، ذلك أن ظروف العمل في البندقية كانت مواتية للعمل في الطباعة أكثر من غيرها، وذلك لغنى البلدة واشتغالها بالتجارة وعلاقاتها الاقتصادية مع أغلب أصقاع أوروبا. وقد صدر عنها من الكتب المطبوعة ما يفوق جميع ما طبع في كل البلدان الايطالية الأخرى. ولذا فقد هاجر إليها منذ سنة ١٤٦٩م الطابعون الألمان ومارسوا فيها الطباعة. وطبع فيها أول كتاب لغته ايطالية وهو أشعار بترارك.

كذلك هاجر إليها نيقولا جينسون من فرنسا، ويعد جينسون هذا من أشهر مصممي حروف الطباعة مدى العصور وأعظمهم. ولقد ابتكر جينسون هذا حرفاً رومانياً ظل حتى زماننا هذا نموذجاً يحتذيه الآخرون. وهو حرف سهل يريح العين وجميل كل الجمال وذلك سنة ١٤٧٠م أثناء اشتغاله بالبندقية. وقام بطبع عدد من الكتب الكلاسيكية اللاتينية. كذلك ابتكر حرفاً يونانياً. وتشهد كتبه التي طبعها بدقتها العلمية.

ويعد الدوس مانوشيوس Aldus Manutius أشهر طباع في تاريخ البندقية، وهو يناقض جينسون من حيث هو بحاثة على حين أن جينسون رجل مهنة وفنان في عمله. كان الدوس بحاثة ويتقن اللاتينية واليونانية وألف كتباً في هاتين اللغتين لتعليم النحو. وقد أسس في البندقية سنة ١٤٩٤م مطبعة وداراً للنشر في البندقية بقصد نشر طبعات نقدية للمؤلفين الكلاسيكيين. وبالفعل فقد صدر عن مطبعته حتى حزيران سنة ١٤٩٩م ثلاثون كتاباً أكثر من نصفها معاجم وكتب نحو باللغة اليونانية.

وباعتباره رجل أعمال فقد أراد انتاج كتب يقرؤها الجميع لا الباحثون والعلماء فقط. لذلك فقد اخترع ما يمكن أن يسمى الكتابة السريعة، وبدأ يخرج كتبه بحجم النصف وحجم الربع وهي الأحجام التي كانت سائدة آنذاك. ثم لم يلبث أن خرج عن هذا التقليد سنة ١٥٠١م وبدأ يصدر كتباً بحجم الثمن، ثم بدأ يصدر الكتب الكلاسيكية بحجم الثمن أيضاً وهو ما يمكن أن يسمى الآن حجم الجيب واستخدم لهذه الطبعات حروفاً جديدة كانت مناسبة كل المناسبة لحجم الصفحات الجديدة الصغيرة.

وإن أول عمل مهم قام بنشره الدوس هو مؤلفات ارسطو. ذلك أنه بدأ بنشرها بدءاً من

سنة ١٤٩٥م، ولم ينته من نشرها الاعام ١٤٩٩م. وقد أصدرها في خمسة أجزاء ضخمة من حجم النصف، وتعد أول طبعة كاملة باللغة اليونانية.

وكما ذكرنا آنفاً اشتهر الدوس بطبعه المؤلفات الكلاسيكية، وسميت هذه الطبعات باسم طابعها : الطبعات الألدية للمؤلفات الكلاسيكية، ويعني ذلك خاصة الطبعات الصغيرة للمؤلفات الكلاسيكية التي طبعها الدوس بالحروف السريعة ونشرها بكميات كبرى خلال حياته.

وكان الدوس في أول أمره، يقوم بنفسه بالأبحاث اللغوية اللازمة، غير أنه عندما اتسعت دائرة أبحاثه وأعماله بعد ذلك، اضطر إلى استخدام مساعدين، فجمع حوله في داره جماعة من المساعدين عرفت باسم «أكادمية الدوس الجديدة». وبفضل هذه الطبعات الألدية الصغيرة ـ وهي رخيصة الثمن ـ سهل انتشار مؤلفات المؤلفين الكلاسيكيين ومعها ثقافة الإنسانيين أكثر من ذي قبل ، وما لبثت هذه الطبعات الألدية أن صارت طبعات شعبية شهيرة، واشتد عليها الطلب إلى درجة أن صار لها مقلدون، وخاصة بمدينة ليون حيث وجد عدد كبير من هذه الطبعات المقلدة.

على أن شهرة هذه الطبعات لا تعزى إلى حجمها وحداثة حروفها السريعة وطباعتها النظيفة وجودة ورقها، وإنما يعزى أيضاً إلى عنايتها بتحقيق النص، وبالاختصار : إلى المجهود العلمي والفني الذي كرس لها.

كذلك اشتهر الدوس أيضاً بالزخارف الجميلة التي أدخلها على فن طباعة الكتب، فلم يكن الحرف المائل هو الحرف الوحيد الذي استحدثه الدوس في فن الكتاب، وإنما استخدم أيضاً، بذكاء عدداً من الافاريز الزخرفية والحروف الزخرفية والاطارات التي زين بها كتبه دون اسراف. وقد بلغ الدوس ذروة إلهامه عندما قام سنة ١٤٩٩م بنشر وطبع كتاب «**معركة في الحلم**» التي هي رواية للراهب الدومينيكاني كولونا. ويحوي الكتاب حوالي ٢٠٠ رسم، مرسومة بالخط الرفيع الذي يلتزم حدود الطراز الكلاسيكي. ومما يرفع من قيمة الكتاب الفنية الترابط والتآلف الموجود بين مختلف الزخارف، وبينها وبين أحرف النص؛ حتى ان الكثيرين لا يزالون يعدونه أجمل كتاب أخرجته المطابع حتى اليوم.

الطباعة في هولندا :

انتشر فن الطباعة في هولندا في السنوات التالية لعام ١٤٧٠م، وانتشر أول ما انتشر في

مدينة اوترخت. ولا تحمل أوئل الكتب اسم الطابع ولا تاريخ الطبع. واستخدم أوائل الطابعين هنا، كما في ألمانيا، الحروف القوطية في الطباعة. ومن أشهر المطبوعات التي صدرت في تلك المدينة كتاب «**الفارس الحكيم**» الذي صدر سنة ١٤٨٦م، واشتهر بجماله وجمال الصور التي زين بها.

وقد انتقل فن الطباعة منذ سنة ١٤٨٠م إلى انفرس التي أصبحت المركز الثقافي الرئيسي للأراضي المنخفضة، مما ساعدها على احتلال مكانة مرموقة في ميدان إنتاج الكتب. ويعد جيرارد لي من أشهر الطابعين ومن أنشطهم في حقل طباعة الكتب الانكليزية وتصديرها إلى انكلترا.

ولكن أول من طبع كتاباً باللغة الانجليزية هو وليم كاكستون، وقد طبعه في بروج من بلدان الأراضي الواطئة وعنوانه «**مجموعة تواريخ طروادة**».

الطباعة في فرنسا :

لقد تم طبع أول كتاب في فرنسا في مدينة باريس سنة ١٤٧٠م. وقام بطبعه ثلاثة من الطابعين الألمان أسسوا مطبعة في باريس بدعوة من اثنين من أساتذة جامعة السوربون. والكتاب هو «**مجموعة الرسائل اللاتينية**». وقد أصدر الطابعون بين سنتي ١٤٧٠ و١٤٧٣م اثنين وعشرين كتاباً كلها باللغة اللاتينية.

وقد تم طبع أول كتاب باللغة الفرنسية في باريس سنة ١٤٧٦م على يد الطابع باسكيه بونوم، والكتاب يقع في ثلاثة مجلدات وعنوانه «**تواريخ فرنسا الشهيرة**». ولم يلبث فن الطباعة أن تقدم وتطور وانتشر في كل فرنسا وذلك بفضل رعاية ملوك فرنسا للفن الجديد.

ودخل فن الطباعة مدينة ليون التي أصبحت حتى نهاية القرن السادس عشر من أهم المدن التجارية في أوروبا.

وقد اشتهر، في تاريخ الطباعة في فرنسا، عدد من الطابعين الذين لهم مكانة مرموقة في هذا الفن والذين اشتهروا كمزخرفين إلى جانب كونهم طابعين ممتازين. من هؤلاء جان دوبريه الطابع العظيم والفنان العبقري الذي طبع عدداً من الكتب كلها مزخرفة بالصور المحفورة على الخشب. من أشهر هذه الكتب كتاب «**صلوات الكنيسة**» وكتاب «**ساعات الفروض**» وكتاب أوغسطين المسمى «**مدينة الله**»، وقد أبدع الطابع الفنان في تصوير

الكتاب الأخير وزخرفته مما يجعل له مكانة عظمى ولامعة في فن الطباعة الفرنسي في عهده المبكر، وهو نفسه ادخل الحروف الأولى الكبيرة المحفورة على الخشب في الكتاب الفرنسي سنة ١٤٨٦م.

وقد اشتهرت فرنسا شهرة فائقة جداً بانتاج كتب «ساعات الفروض»، وكانت هذه الكتب أكثر الكتب الدينية انتشاراً ، كما كانت أكثرها طباعة في عصر الطباعة المبكر.

أما اشهر طابع وناشر فرنسي فهو رسام المخطوطات القديم أنطوان فرار، ولم يكن يطبع كتبه بنفسه وإنما كان يستخدم طابعين آخرين ليطبعوا له كتبه. وهكذا استطاع أن يدير خلال فترة نشاطه وتقدر بحوالي ثلاثين عاماً، تجارة كبيرة في عالم الكتب أهمها روايات الفروسية والتاريخ والدين. وكانت كلها تقريباً باللغة الفرنسية مما جعل المطبوع يتفوق على المخطوط تفوقاً نهائياً.

وقد انتج فرار طبعات فاخرة من «ساعات الفروض». وكان قد بدأ بانتاجها اعتباراً من سنة ١٤٨٥م، ثم أصدر في السنوات التالية سلسلتين من الكتب الأولى «كتب الساعات الصغيرة» والثانية «كتب الساعات الكبيرة». وكان قسم من الأخيرة مطبوعاً على الرق، وصورها المزينة لها محفورة على الخشب ومرسومة باليد مع التذهيب والألوان الساطعة. ويلاحظ أن الزخارف في هذه الكتب تكاد تطغى على النص. وكانت باريس أكبر مركز لانتاج الكتب وتوزيعها وتصديرها داخلياً وخارجياً. ومن كتب فرار الأخرى التي تمتاز بقيمة فنية في حقل الصور كتاب «**الفارس الحكيم**» (١٤٨٨م) وكتاب «**الأسطورة الذهبية**» (١٤٩٦م) وغيرها من الكتب.

الطباعة في انكلترا :

من الغرابة بمكان أن أول كتاب باللغة الإنجليزية لم يطبع في انكلترا وإنما في بروج من هولندا وقام بطبعه كاكستون، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

وقد انتقل كاكستون إلى انكلترا سنة ١٤٧٦م حيث أسس مطبعة أحضرها معه من هولندا. وقد استأجر لهذه الغاية مكاناً مناسباً في لندن قرب كنيسة وستمنسر، وهناك قام بطبع عدد كبير من الكتب. وأول كتاب طبعه كاكستون في انكلترا هو كتاب «**أقوال الفلاسفة**» سنة ١٤٧٧م. كذلك طبع كتب الشاعر الشهير تشور وأشهر كتبه «**قصص كنتربري**». وكان كاكستون دقيقاً في طبع كتبه ولكنه لم يهتم بزخرفتها. وقد انتشرت

المطابع في انكلترا بعد وفاة كاكستون سنة ١٤٩١م كل الانتشار .

الطباعة في ألمانيا الشمالية والأقطار الإسكندنافية

بدأ انتشار فن الطباعة في ألمانيا الشمالية في نفس الوقت الذي بدأ يظهر فيه هذا الفن في الأراضي الواطئة وفرنسا، حيث وجد عدد من الطابعين المقتدرين. وقد تمركز هذا الفن في مدينة لوبيك، وأول طابع عرف أنه استقر في لوبيك هو لوكاس براندیس الذي طبع عدداً من الكتب من أهمها كتاب في التاريخ العام يدعى «**خلاصة الأنباء**». وهو كتاب كبير فاخر محلى بصور محفورة على الخشب.

ولقد أدخل الطباعة إلى كل من الدانمرك والسويد طابع من لوبيك اسمه جوهان سنـــل Snell.

وهكذا لم يصل القرن الخامس عشر إلى نهايته حتى انتشر فن الطباعة في جميع أرجاء أوروبا باستثناء روسيا وعدد من دول البلقان. كما وصل إلى الدولة العثمانية حيث أسس في القسطنطينية أول مطبعة سنة ١٤٩٤م على خلاف في التاريخ.